مشكلة اليهود في العالم

للأستاذ عبد الرحمن شكرى

إن الذى يدرس تاريخ اليهود من قديم الزمن يعرف أن العوامل التى تتنازع سياستهم ليست حديثة العهد ، وأن مواقف الأمم الأخرى منهم فى هـذا العصر كانت لها أشباه ونظائر فى عصور التاريخ المختلفة فى عهد قدماء المصريين والبابليين والأشوريين والفرس والإغريق والرومان . فمسألة اليهود كانت موجودة حتى قبل أن يفقدوا استقلال شعبهم وقبل أن يخرب طيطوس ابن الأمبراطور الرومانى فسباسيان معبدهم وقبل أن يقضى على أورشليم، وقبل أن يتشتت اليهود فى العالم [1]. بل هى كانت موجودة قبل ذلك عند أسرهم ، ونقل الكثير منهم إلى بابل وهو المعروف فى التاريخ باسم أسر بابل [2] وكانت موجودة عند ما سمح

(١) كان اليهود منتشرين فى العالم المتحضر من قديم الزمن قبل سقوط أورشليم ، وأحيانا كان بعضهم يتخذ جنسية أخرى ويرقى أعظم المناصب فى الأمم الأخرى القديمة وحاولوا قديما السيطرة على الأسواق المالية كما يفعلون الآن (٢) فى عهد بختصر الكلدانى

كما أصرح بأن الاختبارات الأخيرة كانت أعطتنى نتائج مماثلة لنتائج الاختبارات التى جرت فى أوربا وأميركا تمام المماثلة (مجلة التربية والتعليم ـ الجزء ١٩ . ص ٣٠٣ . حزيران ٩٢٩)

فلم أذكر اختبارات الدكتور كلاباريد هنا ، لأردّ بها على رأى الدكتور طه حسين . وإنما ذكرتها لأظهر للعيان (بمثال آخر وبوضوح أكبر) ما فى خطة البحث التى سار عليها الدكتور من الغرابة والنقص . . .

أعتقد أن الانتقادات التى سردتها آنفاً عن المسألة الأولى فى المسائل التى حاول الدكتور طه حسين درسها ومعالجتها فى كتابه « مستقبل الثقافة فى مصر » تكفى لإعطاء فكرة عامة عن حظ الكتاب المذكور من القيمة العلمية . . .

واستناداً إلى كل ذلك ، أذكر ما قلته فى مقدمة هذا المقال :

إن كتاب مستقبل الثقافة فى مصر ، يتألف فى حقيقة الأمر من مجموعة أحاديث ومقالات ، قليلة التناسق وكثيرة التداخل . يبدو على جميع أقسامها آثار الارتجال والاستعجال ، ويتخلل معظم أقسامها أنواع شتى من الاستطرادات والاستدراكات . . .

(يرمانا) أبو ذ ويه

لهم قورش ملك الفرس بالعودة وإعادة بناء أورشليم، وعندما شجعهم فى أعمالهم المالية كى ينشط التجارة فى دولته . ويتنازع نفوس اليهود من قديم الزمن عاملان : النزعة العالمية، والنزعة الشعبية المصطبغة بصبغة دينية . وقد كانت متاعب اليهود قديماً وحديثاً ناشئة من استفحال النزعتين وتنازعهما نفوسهما ؛ فتارة يوقعهم الغلو فى المحافظة على تقاليد النزعة الشعبية الدينية فى نزاع مع الدول الأخرى، وتارة يوقعهم الغلو فى النزعة العالمية فى ذلك النزاع. وقد كانت النزعة العالمية تظهر فى نفوسهم فى بعض الأحايين بمظهر اقتصادى مالى فيحاولون السيطرة على أسواق العالم المالية ، وتارة تظهر النزعة العالمية بمظهر الدعوة إلى مُثُل عليا . وكان بعضهم يريد قصر تحقيق هذه المثل العليا على اليهود ، وهؤلاء هم الذين كانوا يناصرون النزعة الشعبية الدينية ، وبعضهم لا يريد قصرها على اليهود بل تعميمها فى العالم . والغريب فى أمرهم أنه بالرغم من المشاحنات والاقتتال الذى كان يحدث قديماً بين اليهود من أنصار المحافظة على تقاليد النزعة الشعبية الدينية وبين أنصار النزعة العالمية ، وبالرغم من أن النزعة العالمية فى نفوس بعضهم كانت تتخذ مظهر الأثرة المالية والطباع الدنيوية الراغبة فى الربح المالى قبل كل شىء ، وهى طباع تخالف نزعة المثل العليا وتخالف التضحية فى سبيل تحقيقها، فإن كثيراً منهم كان يحاول التوفيق فى نفسه بين النزعتين المتناقضتين أو يحن تارة إلى هذه وتارة إلى تلك، كما أن بعضهم كان يحاول الاستفادة لنفسه أو للشعب اليهودى من النزعتين المتناقضتين معاً . فاليهودى الذى يميل إلى المثل العليا أو الذى يميل إلى المحافظة على تقاليد النزعة الشعبية الدينية لا يرى حرجاً فى أن يلتجئ إلى صاحب النزعة العالمية المالية والطباع الدنيوية لاستخدام ماله وسلطته فى سبيل تحقيق مثله العليا أو فى سبيل المحافظة على التقاليد الشعبية الدينية الضيقة التى ترفض النزعة العالمية، كما أن صاحب الطباع الدنيوية والأثرة المالية لا يرى تناقضاً فى خطته إذا حن إلى المثل العليا التى قد تخالف نزعة أثرته الدنيوية، أو إذا ساعد فى المحافظة على تقاليد النزعة الشعبية الدينية الضيقة التى تخالف نزعته العالمية الدنيوية ، وربما حن إلى المثل العليا ذلك الحنين الذى يدعو إلى التضحية فى سبيلها فى الوقت الذى يستثمر الدعوة إلى تلك المثل العليا لكسب المال وزيادة نفوذه الاقتصادى . واجتماع هذه النزعات المختلفة فى النفس الواحدة ليس مقصوراً على اليهودى فهى طباع النفوس البشرية عامة، ولكن هذا التناقض

أظهر ما يكون فى اليهود لغلوهم فى النزعتين المتناقضتين غلواً يظهر الفرق بينهما فى نفوسهم أكبر منه فى نفوس غيرهم. وقد ظهر اليهود قديماً وحديثاً ظهوراً كبيراً فى مناصرة النزعتين المتناقضتين، وهذا أدى كما ذكرت إلى مشاحنات بين طوائفهم وإلى مشاحنات بينهم وبين الأمم. وقد ظهرت النزعة العالمية فى حياة اليهود على اختلاف مظهرى تلك النزعة أى المظهر المالى الاقتصادى ومظهر المثل العليا قبل أن يفقد اليهود كل سلطة سياسية فى حكم فلسطين. فظهرت فى دولة الفرس[1] وظهرت فى دولة الرومان[2]

على أن فقدانهم كل سلطة سياسية فى حكومة فلسطين لم يوهن النزعة الشعبية الدينية فى نفوسهم وإن كان قد ساعد على استفحال النزعة العالمية. وتحريم الكنيسة المسيحية على المسيحيين تقاضى الربح عند تسليف النقود واعتباره ربا أدى إلى ما يشبه احتكاراً من اليهود للمعاملات المالية وإلى سيطرتهم على الأسواق المالية فى أوربا، وهذا قوى النزعة العالمية فى نفوسهم كما أدت النزعة الشعبية الدينية إلى مناصرة بعضهم بعضاً؛ وزادت هذه المناصرة إذ وجدوا أنفسهم قلة يهودية فى وسط كثرة غير يهودية من الشعوب التى هاجروا إليها. وشأن القلة من الطوائف التعاون حتى لا تغمرها الكثرة ولا سيما إذا كانت الكثرة كثرة تبغض القلة. وزاد البغض الدينى فى نفوس الكثرة أولاً استيلاء اليهود على الأسواق المالية بالتسليف؛ وثانياً عواقب مناصرة اليهود بعضهم لبعض من استيلائهم على كثير من المهن التى تحتاج إلى الأعمال الفكرية والاستعداد العلمى والفنى. وبالرغم من أن بعض اليهود حاول معالجة هذا البغض والقضاء على الكره الذى كان غير اليهود يشعرون به نحوهم بالاندماج فى الأجناس الأوربية اندماجاً تاماً، فإن الكثرة من اليهود بقيت محافظة على تقاليد النزعة الشعبية الدينية. ولو أن النزعة العالمية غلبت على نفوسهم كل الغلبة لتمكنوا من الاندماج فى الشعوب التى استوطنوا أرضها. وهذا الاندماج كان ينسى تلك الشعوب أن اليهود فى أصلهم أجانب، وهذا كان يزيل البغض الذى كانت آحاد تلك الشعوب تشعر به نحوهم، وكان يستطيع اليهود أن ينعموا بميزة القدرة على كسب المال، ولكن ربما كانت تلك القدرة تقل لو تم ذلك الاندماج لأنه كان ينسيهم اختلاف جنسهم عن الأجناس الأخرى؛ فكان يقضى على مناصرة بعضهم لبعض، وعلى تعاونهم للسيطرة على الأسواق المالية، وعلى المهن الفكرية والعلمية.

وبقاء النزعة الشعبية الدينية فى نفوسهم أدى إلى فكرة الصهيونية[1] التى تدعو إلى العودة إلى حكم فلسطين. وهذه الفكرة كانت فى أول أمرها مثلاً أعلى كالمثل العليا تحلم بها الإنسانية ولا تحقق. وهذه الفكرة الصهيونية زادت اعتقاد آحاد الشعوب الأوربية أن اليهود بينهم — وإن تجنسوا بجنس غير جنسهم، وإن ضحوا فى الحروب وفى غير الحروب لمناصرة الجنس الجديد الذى تجنسوا به — إنما هم أجانب بالرغم من ذلك، وأنهم يعدون أنفسهم أجانب.

وهذه الفكرة الصهيونية مخالفة لمصالح اليهود الاقتصادية؛ فإن قطراً كفلسطين ربما كان يصلح لاستيطانهم قديماً عند ما كانوا قليلين وعلى حالة قريبة من البداوة، وعند ما كانوا هم الكثرة الغالبة فيه. أما الآن فقد زاد عددهم فى العالم وتعددت فوائدهم ومنافعهم العالمية، وصار فى هذا القطر كثرة غير كثرتهم من العرب الذين وراء كثرتهم فى فلسطين كثرة عربية أخرى فى الأقطار المجاورة. ولو خلت فلسطين لليهود لما استطاعت أن تؤوى غير عدد قليل من الملايين العديدة من اليهود. وفى العالم بقاع شاسعة أكثر خصباً تحكمها انجلترة وغيرها من الأمم المناصرة لليهود. فلا يمكن أن يقال إذاً إن الضرورة والأسباب الدنيوية هى التى تقضى بإسكان المهاجرين اليهود فى فلسطين ... لا، بل تشبث اليهود بفلسطين هو تشبث بتلك النزعة الشعبية الدينية التى تفضل التقاليد القديمة والتى تحاول أن تعكس دورة الزمن وأن تعيد العالم كما كان فى بدايته وأن تتجاهل حقائق الحياة. وهذا من قبيل التشبث، فى أمور الحياة لا فى عواطف النفس وحدها، بمثل أعلى لا يمكن تحقيقه. وهذا التشبث كما قلنا

(١) بعد عودتهم من بابل استخدموا الثقافة التى استفادوها هناك لدواع دينية وزادتهم محنة الأسر رغبة فى المثل العليا

(٢) كالمثل العليا العالمية فى المسيحية وقد انتشرت أولا بين اليهود ثم انتقلت منهم إلى غيرهم. وقد ساعد هذا العامل النفسانى لقبول الدعوة لرغبة فى إعادة استقلالهم.

(١) من قديم الزمن كانت تنازع فكرة الصهيونية والتشبث بالمعبد الأورشليمى فكرة اعتبار المعبد فى نفس كل يهودى، وظهرت هذه الفكرة للسلوى واستئناف الحياة الدينية أولا عند بعض من فر إلى مصر بعد غزوة نبوخذ نصر الكلدانى، وثانيا بعد تخريب طيطوس الرومانى للمعبد وسقوط أورشليم.